التوازن في حياة المسلم

إن الحمد لله؛ نحمده, ونستعينه, ونستغفره, ونتوب إليه, و أصلى وأسلم على عبده ورسوله نبينا محمد, وعلى آله, وأصحابه, ومن دعا بدعوته, واهتدى بهدية إلى يوم الدين... أما بعد,,,

المقصود بالتوازن:

هو أن تُكَوّن شخصية الإنسان المسلم تَكَوُّناً معتدلا, سليماً, بحيث لا يطغى فيها جانب على حساب جانب آخر, ولا يغفل فيها جانب بسبب الاهتمام الزائد بجوانب أخرى غيره ... ومثله التوازن في بناء المجتمع بحيث يتكون المجتمع المسلم من مجموعة من الأفراد المتوازنين الذين يلبون جميع الاحتياجات التي يحتاج إليها المجتمع المسلم. وهناك حقيقة يكاد أن يتفق عليها الناس كلهم, وخلاصتها: أن الأفراد يختلفون فيما بينهم ويتفاوتون تفاوتاً:يقل, أو يكثر, لكنه لا يغيب .. بمعنى أنك لا تجد اثنين من الناس متماثلين في كل شيء,وهذا الأمر هو لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى؛فإن المجتمع بحاجة إلى مجموعة من الكفاءات المتفاوتة, وأي مجتمع بحاجة إلى القادة, والزعماء, وبحاجة إلى الأطباء, والعلماء, والمهندسين, وإلى الخبراء في كافة مجالات الحياة, بل وبحاجة إلى الخدم و إلى غيرهم من أصحاب الحرف والمهن العادية بل والوضيعة في نظر الناس, وبمجموع هذه الأشياء يتكون المجتمع, وهذه الحقيقة يجب أن لا تغيب عنا ونحن نتحدث عن التوازن في حياة الفرد المسلم وفي حياة المجتمع المسلم.

مجتمع فريد:

وإذا كانت هذه الحقيقة مسلمة, فإننا نطل إطلالة سريعة على ذلك المجتمع الفريد الذي تربى على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم: مجتمع الصحابة رضى الله عنهم المجتمع الذي أراد الله أن يكون منارة مرتفعة على التاريخ يتطلع إليها الناس في كل زمان, ومكان.هذا النموذج المتمثل في مجتمع الصحابة لا نطمع أن يتحقق مرة أخرى بنفس المستوى الراقي من الإيمان والعلم والعمل, لكن نطمع أن يكون هذا المجتمع قدوة مثلى لكل مجتمع, ولكل فرد مسلم يدعو إلى الله على مدار التاريخ, ويمكن أن نكتشف بها الخطأ من الصواب في كل وضع يعيشه

المسلمون لأنه كما قيل:"بضدها تتميز الأشياء". وكـذلك يجب أن نقيس على هذا المجتمع الفريد كل وضع, وكـل مجتمـع, فنعـرف مدى استقامته, أو انحرافـه, ونعـرف مقـدار هـذا الانحـراف بهـذا القياس, وهذه القضية المهمة نطبقها في موضوعنا: التـوازن في حياة الفرد وفي حياة المجتمع.

سمات ظاهرة في مجتمع الصحابة:

حين تنظر في مجتمع الصحابة نجد:

أولاً: كل فرد منهم متحقـق بقـدر من العمـل سـواء بالعبـادة, أو الدعوة, أو غير ذلك, فلا تجد أحد من أصـحاب محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم يغمـط أو ينتقص بشـيء من الإخلال بالواجبـات الشرعية أو التقصير فيهـا إلا مـا لابـد من وقوعـه من البشـر من حوادث فردية معينة .

ثانيـا: التزموا جميعـا - كلهم بلا اسـتثناء - بعقيـدة واحـدة صـحيحة ناصعة نقية لم يأخذوها بالوراثة,ولا تجد أحـدا من أصحاب محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم بقي على معتقـد مـوروث من موروثـات الجاهلية بـل تمـردوا عليهـا بالكليـة وخلعوهـا على عتبـة الإسـلام وتلقوا العقيدة الصحيحة نقية صافية من فم محمـد عليـة الصـلاة والسلام, ولم يحصل أن وقع أحد منهم ببدعة اعتقادية, ولا ببدعـة عملية على الإطلاق . إذاً قدر مشـترك من العلم والعمـل موجـود لكل فرد من الأفراد في ذلك المجتمع الأول.

فإذا انتقلت إلى المجتمع بكليته وجدت أنه فيما عـدا هـذا القـدر المشترك فإنه يوجد لكل واحد من أصحاب محمد صلى الله عيـه وسلم ميزة, وخصيصة برز فيها هو وطائفة معه, وقد لا توجد في فرد أو أفراد آخرين:

فمعـاذ بن جبل رضى الله عنـه: [أمام العلمـاء يـوم القيامـة برتـوة] كماورد عن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم,وهـو صـحيح بمجمـوع طرقه، فكان معاذ فقيها من فقهاء الصحابة...

ومثله: عبد الله بن مسعود: فقـد قـال فيـه عمـر بن الخطـاب:(ابن مسـعود كـنيف ملئ علمـاً) فهـذا معـاذ, وابن مسـعود, ومعهم غيرهم من الصحابة تميزوا بالعناية بالعلم, والاهتمـام بالتفقـه في الدين.

أما خالد بن الوليد: فلم يشتهر بحمل العلم والفقه بمثل ما اشتهر بـه معـاذ, أو ابن مسـعود, أو غـيرهم من فقهـاء الصـحابة, وإنمـا أشتهر خالد بإتقان فنـون الحـرب, والفروسـية, حـتى أصـبح يجـد لذته, وسعادته, وقرة عينه في معاناة هذا اللون من الجهاد الـذي

يشق على كثير من النفوس ولذلك كان رضى الله عنه يقول:(ما ليلة تهدي إلي فيها عروس أنا لها محب, أو أبشر فيها بغلام بأحب إلي من ليلة شديدة الجليد أصبّح فيها العدو في سرية من المهاجرين) يجد من اللذة في هذا الجو الشديد البرودة المخيف مالايجده في ليلة تهدي إليه فيها عروس, أو يبشر فيها بغلام .

أبوذر الغفاري رضى الله عنه: وأبو ذر لم يعرف عنه مزيد عناية بالعلم أكثر من غيره, ولا مزيد اهتمام بشأن الجهاد أكثر من غيره, و إنما عرف بالزهد والورع, والحث على التقلل من الدنيا, والتزود للآخرة ... وتجد من الصحابة غير هؤلاء لهم اهتمامات أخرى غير ما سبق .

وهذه المزايا التي تنفرد بالتميز بها طائفة عن أخرى راجعة إلى خصائص موجودة في أصل التركيب, وأصل الفطرة عند هؤلاء القوم, فخالد: جبل على الشجاعة, وابن مسعود: منح من قوة الذاكرة, وقوة الاستنباط, والجلد في طلب العلم ما ليس عند غيره ... وهكذا .

أمور يجب مراعاتها:

ومن مجموع هذه الخصائص يتكون المجتمع المسلم, وهذا أمر لابد من مراعاته في هذه الصورة المثالية في مجتمع الصحابة: يجب أن نعمل على أن نتمثلها في واقعنا اليوم, ونحن نسعى إلى تكوين المجتمع المسلم الصحيح الذي يتأسى بمجتمع الصحابة, فندرك أنه لابد أولاً: أن يلتزم كل فرد منا بقدر معين من الخصائص والصفات, فيكون هذا القدر مشتركا بين جميع الأفراد, فكل فرد لابد أن يتعلم من العلم الشرعي ما يحتاج إليه في حياته العملية... وأن يعرف العقيدة الصحيحة- ليس عن طريق التقليد, والوراثة بل- عن طريق التلقي, ومعرفة الدليل ... وكل فرد لابد أن يلتزم بقدر من العمل, والعبادة, والقيام بما لابد منه في ذلك ... ثم بعد ذلك يتفاوت الأفراد, فيوجد منهم من يشعر بميل إلى الالتزام بطلب العلم الشرعي؛ لأنه يحس أن هذا الأمر خلق له, ويستطيع أن يبرز وينتج فيه أكثر من غيره حيث يملك أداته, فيتجه إلى هذا العلم ويحقق فيه من النتائج الشيء الكثير ... ونجد إنسانا آخر: يحس أنه يمكن أن يحقق لنفسه وللمسلمين في مجال تعلم الطب ما لم يحقق في غيره ... وثالث: يشعر إنه يمكن أن يحقق في مجال تعلم الهندسة ما لا يحقق في غيره... ورابع: تجد أنه يمكن أن يحقق في مجال تعلم صناعة من الصناعات, أو حرفة من الحرف التي لا تحصر ما لا يحقق في غير هذا المجال, فعلي الإنسان أن ينظر في المجال

الذي يحس أن نفسه إليه أميل, وطبعه به أوفق, فيعمل علي التوجه إلى هذا المجال؛ لينجح فيه, ويخدم نفسه والمسلمين من خلاله ما لم يكن هذا المجال مجالاً غير مشروع .

وهذه القضية إن كان علماء التربية اليوم يتحدثون عنها إلا أننا لسنا بحاجة إلى أن ننقل كلامهم كيف ونحن نجد من نصوص علمائنا السابقين ما يغنينا عن ذلك:فهذا الإمام ابن القيم رحمه الله يقول في كتابه" أحكام المولود" وهو يتحدث عن الأطفال, وتعليمهم: "ومما ينبغي أن يعتمد: حال الصبي, وما هو مستعد له من الأعمال, ومهيأ له منها مما كان مأذونا فيه شرعا, فيعلم إنه مخلوق له فلا يحمله علي غيره" يعني أن المُرَبِّي يجب أن يتأمل حال المُرَبَّى, وما هو مهيأ له بأصل الخلقة, والطبيعة, فيوجهه إلى ذلك, ولا يحمله علي غيره, يقول:" فإنه إذا حمل علي غير ما هو مستعد له؛ لم يفلح فيه, و فاته ما هو مهيأ له, فإذا رآه حسن السمع, صحيح الإدراك, جيد الحفظ, واعيا, فهذه من علامات قبوله, وتهيؤه للعلم, وإن رآه خلاف ذلك من كل وجهة, وهو مستعد للفروسية وأسبابها: من الركوب والرمي واللعب بالرمح, وإنه لا نفاذ له في العلم, ولم يخلق له مكنّه من أسباب الفروسية, والتمرن عليها, فإنه أنفع له وللمسلمين, وإن رآه بخلاف, وإنه لم يخلق له ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع, ورآه مستعداً لها, قابلا لها, وهي صنعة مباحة نافعة للناس, فيمكنه منها هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج إليه في دينه" .

إذاً ابن القيم أشار إلى القدر الذي لابد منه لكل إنسان, وهو تعلم كل ما يحتاج إليه في دينه, ثم أشار بعد ذلك إلى أن الأولى بالإنسان أن ينظر سواء في نفسه, أو فيمن يربيه فيما هو مستعد له فطرة وخلقة, فيوجهه إلى ذلك, فإنه إن وجهه إلي غيره؛ لم يفلح فيما وجهه إليه, وخسر الشيء الذي كان مستعداً له؛ لأنه لم يشتغل به, وهذا ملمح مهم جداً في قضية التوازن, وحين ننظر إلي جانب معين من جوانب التوازن, فمثلا: جانب العلم لنفترض أنك بعد أن تأملت نفسك وفكرت في الخصائص والمواهب التي منحك الله وجدت أنك تميل إلى تعلم العلوم الشرعية وتحصيلها, وهذا لاشك مهم جداً ولا غنى للمسلمين عنه في حال من الأحوال, فحينئذ ستجد نفسك أمام عدد كبير من العلوم: أمام تعلم التفسير المتعلق بكتاب الله وكتاب الله هو أشرف الكتب وأعظمها, والمسلم بحاجة إلى معرفته قبل معرفة غيره, وهذا يدعوك إلى العناية بالتفسير, فإذا التفت من جانب آخر وجدت أن السنة تفسر القرآن, وتبين مجمله, وتقيد مطلقه,

وتخصص عامـه, فـأنت بحاجـة إذاً إلى معرفـة السـنة حـتى تفهم القرآن فهما صحيحاً, وإذا نظرت إلى جانب ثالث: وجدت أن علم العقائد أصل, وأن كل علم قبل هـذا العلم لا يكفي, وأن الإنسـان إذا فسدت عقيدته لا ينفعه بعد ذلك ما حصل من العلوم... وهكذا كل علم يبدي حجته؛ تجد أنك تحكم لـه, وتقـول: هـذا العلم أولى من غـيره, ولـذلك تجـد أن بعض الطلبـة ينتقـل بين هـذه العلـوم بطريقة فردية غير منضـبطة ولا مسـتقرة, فهـو اليـوم متجـه إلى تعلم التفسير, فتلقاه بعد شـهر أو شـهرين قـد تـرك الكتب الـتي بدأها والبرنـامج الـذي ألـزم نفسـه في تعلم التفسـير واتجـه إلى حفظ السنة, فتلقاه بعد سنة وقد قطـع هـذا العمـل على نفسـه, وقال: لابد أن أتعلم العقيدة, فهي أساس كـل شـيء فلا يكـاد أن يبدأ بتعلم العقيدة حتى ينتقل منها إلى الفقه, وهـو يقـول: الفقـه علم عملي والناس محتاجون إليه في كل حركة وكل سكنة, ولابد من تعلم هذا العلم لسد حاجة الناس... بـل أعجب من ذلـك أنـك تجد بعض الشباب يتجـه إلى طلب علم من العلـوم, فيلقـاه بعض من حوله, فيسأله سؤالاً يتعلق بعلم آخر, فيجد نفسه حائراً أمـام هذا السؤال الذي وجه إليه لا يستطيع الإجابة عليه فهـذا السـؤال وهـذه الحـيرة أملت عليـه الاتجـاه إلى العلم الـذي يتعلـق بهـذا السؤال, فإذا كان السؤال فقهياً؛ اتجه إلى الفقـه؛ لأنـه شـعر من خلال عجزه عن الإجابة على هذا السـؤال بضـرورة تعلم الأحكـام التفصيلية وأدلتها, فإذا بدأ وجه إليه سؤال آخر وثـالث ... وهكـذا, فيكون الإنسان متردداً لا يكاد أن يستقر على حال بسـبب ضـعف انتباه الإنسان لنفسـه, وضـعف ضـبطه للطريقـة الصـحيحة الـتي يجب أن يتعلم بها, وبسبب عدم وجود المـربى, أو الموجـه الـذي ينتفع الإنسان بخبرته ومعرفته في هذا المجال.

ولذلك قال علماؤنا السابقون: إن الإنسان إذا وجد في نفسه ميلا إلى علم من العلوم ينبغي عليه أن يركز في هذا العلم الـذي شعر بأنه يميل إليه, ولو كان هذا العلم مفضولا, فمثلا لـو وجـدت في نفسك ميلاً إلى علم التاريخ, وأنك تبـدع فيـه أكـثر من غـيره, فإنك حينئذ ينبغي - بعد أن تتعلم بعض علوم الشرع التي لا بد لك منهـا- أن تركـز على تعلم علم التـاريخ, وأن تخـدم الإسـلام من خلال هـذا العلم, فتـبين مثلاً المرويـات الباطلـة الـتي دسـها الرافضة, وغيرهم من أعـداء الإسـلام في كتب التـاريخ, وشـوهوا بها سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم, بل شوهوا التـاريخ الإسلامي, وخاصة القرون المفضلة, فـأنت مـؤرخ تخـدم الإسـلام من خلال تمحيص التاريخ الإسـلامي, ومن خلال دراسـتك للتـاريخ دراسة صحيحة, وبيانك للصورة المشرقة التي رسمها المسلمون

الأولون حتى ينسج المسلمون على منوالها, فيعرفوا التصرف الصحيح, فيمتثلون, ويعرفوا ما تبين عدم صحته فيجتنبوه, ولذلك قال الشاعر :

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارا إلى عمره

وما يمكن أن يقال في التاريخ مثلا يمكن أن يقال في علم آخر, ولذلك قال الإمام ابن حزم في كتابه الذي سماه:" الأخلاق والسير في مداواة النفوس" :" من مال بطبعه إلى علم ما ولو كان أدنى من غيره, فلا يشغلها بسواه, فيكون كغارس النارجيل في الأندلس, وكغارس الزيتون في الهند" وهذا كله لا يثمر, فحين تغرس نوعاً من الشجر في بلد لا تصلح تربته, أو لا يصلح جوه, فإنه يموت, فتخسر الشجرة, وتخسر الجهد الذي بذلته, والوقت والأرض ... وهكذا من وجه نفسه إلى علم لا يحسنه؛ يتعب كثيراً ولا يحصل فيه إلا القليل, بل إنني أقول: إن الأمر يتعدى ذلك, فإن كثيراً ممن يسيئون إلى العلم الشرعي ويخطئون من حيث أرادوا الصواب والإحسان هم من أقحموا أنفسهم في هذه المجالات, وهم لايملكون أداتها ولا آلتها ولم يخلقوا لها, فجاءوا من الآراء والنظريات والأقوال بالشيء الغريب الذي لم يسبقوا إليه, وتجد كثيرا من الشباب خاصة في بداية الطلب, وفي غمرة الحماس قد يأتون بآراء وأقوال في منتهى الغرابة, وقد يصدر منهم أيضا من التصرفات والمواقف الشيء الكثير, ولا حاجة إلى ضرب الأمثلة لذلك, فهي معروفة لدى الكثير .

إننا حين ندرك المواهب التي وهبنا الله عز وجل إياها و الأشياء التي نستطيع أن نفلح فيها أكثر من غيرها, فإننا بذلك نوفر على أنفسنا جهداً وعناءً كبيراً, ونقدم للدين الذي نحبه ونحب أن نضحي في سبيله شيئا كثيرا, وفي نفس الوقت نكون قد تناوبنا القيام بفروض الكفايات التي أوجبها الله علينا, فإن تعلم هذه العلوم فيما عدا العلم الذي يخص الشخص هو من باب فروض الكفايات, حتى علوم الصناعات التي يحتاجها المسلمون في حياتهم العملية هو فرض كفاية, وكذلك تعلم العلوم الزائدة التي يحتاجها الناس, فإذا قام كل واحد منا بالتعرف على العلم الذي يحسنه, فوجه همه إليه, أو التعرف على الشيء الذي يناسبه- ولو لم يكن علما- ووجه همه إليه, فإنا سنجد في النهاية أننا بمجموعنا أفلحنا في تكوين مجتمع إسلامي متكامل, يتناوب أفراده القيام بفروض الكفاية, ولا يوجد فرد في غير محله, فكل

فرد في موقعه الطبيعي .

ولا شك أن الإنسان قد يقـول: كيـف لي أن أعـرف الموهبـة الـتي يمكن أن أجيـد فيهـا؟ وهـذا فعلا لا يتحقــق في كثـير من الأحيان إلا بنـوع من الانتبـاه والتجربـة, ففي بعض الأحيـان تكـون مواهب الإنسان بارزة ومتجهة إلى شـيء معين, وهـذا لا إشـكال فيه... لكن أحياناً أخـرى تكـون هـذه المـواهب خفيـه تحتـاج إلى تجربة, واستشارة, و بالتجربة, والانتباه والاستشارة يصل الإنسان إلى الموقع المناسب.

ويجب علينا أن نـدرك أن اللـه حين قسـم بيننـا هـذه المـواهب, وهذه الملكات أراد منـا أن نسـتثمرها في طاعتـه, وفيمـا يريـده؛ ولذلك فإننا حين نضيعها نكون قد ظلمنا أنفسنا, وتعرضنا لسخط الله, أو عقابه, اقرأ قـول الله: } وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَـكُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِّيَبْلُـوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (165) { سورة الأنعام

تأمل هذه الآية:}جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ { فنحن مستخلفون في هــذه الأرض, ومطــالبون بعمارتهــا. } هُــوَ أَنشَــأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (61) {سورة هود . ومطالبون بإقامة دين الله فيها بكل

جوانبــه, ودين اللــه لا يقــوم بــه إلا من أحاطــه بجميــع جوانبــه, مطالبون بجميع ذلك, ثم قال: } وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ{ إذاً: فالناس درجات متفاوتـة منهم: من جمـع من الفضـل والخـير أنواعــا كثــيرة, ومنهم: دون ذلــك, ومنهم: الفاضــل في مجــال, ومنهم: الفاضــل في مجــال آخــر, منهم: العــالم, ومنهم العابــد, ومنهم المجاهـد... وهـذه درجـات متفاوتـة وأنـواع من الفضـل: } لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَـاكُمْ{ إذاً:هـذا الفضـل هـو ابتلاء واختبـار, من هـو الذي ينجح في هـذا الابتلاء, فيقـوم بمـا أوجب اللـه عليـه بتوجيـه المواهب الفطرية توجيهاً صحيحاً يخدم الإسلام, وبالاستفادة ممــا اكتسبه في طاعة الله, ومن هو الـذي يخفـق في هـذا الامتحـان, فيوجه مواهبه توجيهاً غير صحيح, أو يوجه ما اكتسـبه في معصـية اللــه, أو في الإث,م أو في أشــياء لا فائــدة منهــا, ثم ختم الآيــة بالإشارة إلى العقـاب وإلى مغفـرة اللـه ورحمتـه:}إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ { وهذا دليل جلي واضح على أنــه ينبغي للشاب المسلم أن يستثمر مواهبه وطاقاتـه في خدمـة الإسـلام, ويـدرك أن كـل طاقـة عنـده مهمـا تكن بسـيطة ينبغي أن توجـه

توجيهاً صحيحاً ...

إن من الخطأ أن يكون الشاب في بناء شخصيته متذبــذباً منتقلاً من طرف إلى طرف بل ينبغي له أن يرسم لنفسه منهجا متوازناً معتدلا يجمع بين العمل والعبادة والعمــل ثم يحــرص على الــبروز أكثر وأكثر في المجال الذي يحسن فيه ...وفي الختام أتوجــه إلى الله تعالى وأسأله أن يوفقنا للاستفادة مما وهبنا في طاعتــه وأن يجعلــني وإيــاكم ممن صــرفوا جميــع إمكانيــاتهم في ســبيل اللــه تعالى, وأن لا يجعل حظنا هو الكلام, أو الاستماع, وأصلى وأســلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.